الخصائص الأسلوبية في آيات الملمح الاجتماعي

أ.م.د. خولة عبد الحميد عودة

المقدمة:

يتناول هذا البحث بالدرس أهم الأنماط والأساليب البلاغية التي أظهرت الملمح الاجتماعي في آيات الذكر الحكيم، وذلك في محورين الأول صنف الآيات التي تناولت الملامح الاجتماعية، أما المحور الثاني فركز على أهم الأساليب البلاغية التي برزت فيها تلك الملامح الاجتماعية، وقد توصل البحث إلى أهم النتائج وهي أن القرآن الكريم يثبت في خطابه ملمحاً سلوكياً من خلال انسجامه مع الواقع الحياتي وبما يضمن للفرد التعايش الكريم وتعاملاته مع بقية أفراد المجتمع، وإزاء الفرد.

ولعل ما يهم هذه الدراسة الآلية التي اعتمدت في إبراز تلك الملامح الاجتماعية، وآلية عرضها بخصائص وأساليب دلالية تؤدي إلى قبولها من المتلقي لتحقق غرضها البنائي للمجتمع. إذ إن من ابرز خصائص المنهج القرآني تثبيت العلاقات الاجتماعية التي لا تقوم على أساس الصراع أو التناقض بل انه يعمل على إرساء أسس تربوية إنسانية تشيع بين الناس أواصر الرحمة، والحق والتسامح والتعاون ومراقبة الضمير وخشية الله وما إلى غير ذلك من المعاني الكريمة.

المحور الأول
آيات الملمح الاجتماعي

كثير من الآيات القرآنية تحمل معاني التعامل السليم التي تقوم على مبدأ تقييم وتقويم العلاقات الاجتماعية، إن هذه العلاقات لابد من أن يكون لها منهج مرجعي له أسسه الواضحة.

والنص القرآني يراعي البنية الاجتماعية بما يحكمها من قوانين، ومن ثم يعمل على طرح تلك الملامح ذات المرجعية الإلهية مستحضراً فيها البعد السنني. ولابد من الإشارة إلى أن تلك السنن الاجتماعية لا يقف استخلاصها عند حدود استقراء الآيات التي صرح فيها القرآن الكريم بتلك الملامح الاجتماعية، وإنما يأتي أيضا من خلال سياقات وآليات متعددة تنبأ عن تلك الملامح وتؤكدها.

وهناك الكثير من الآيات التي يمكن تقسيمها على أسس اجتماعية تعمل على ربط المجتمع بما يحكمه، ومن ثم خلق ملمح اجتماعي خاص به، وأهمها تلك الآيات التي تشرع بعض الأحكام والقوانين الاجتماعية من اجل ضبط العلاقات التعاملية بين أفراد المجتمع وفي احترامها دليل على احترام التشريع الإلهي وما له من اثر يترتب عنها في جميع جوانب الحياة الاجتماعية١ .

ومثل ذلك نجد في قوله تعالى:(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَمِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)٢، إذ ربط الحكم الذي هو وجوب الصوم بثمرة معينة وهي التقوى، وقوله تعالى في موضع آخر: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)٣وفيه بيان للعلاقة الطردية التي تربط نظام القصاص باستقرار الحياة الاجتماعية. وهناك الآيات التي لها صلة بما هو عقائدي، ويقصد به مما يعمل به بموجب العقيدة الإسلامية، فالإسلام وحده الذي يمكنه إعادة الحضارة الخلاقة المبدعة للمسلمين وإدخالهم فيها من خلال ربط بعض المسائل العقائدية بالجانب الاجتماعي٤، وما يترتب عليها من نهوض اجتماعي، ولعل قوله تعالى :(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)٥، فالإيمان الفاعل الملتزم مقدمة لنزول بركات السماء وكما في قوله تعالى :(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)٦. كما يوضح أن التوبة والاستغفار مقدمة للتقدم والرخاء الاجتماعي والحياة الطيبة كما في قوله تعالى: (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ)٧، ونجد آية أخرى تجعل كفر النعمة سبباً في فقدان الأمن الاجتماعي (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ

الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)٨، والكثير من الآيات التي ترتبط بهذا الجانب.

كما يؤكد في كثير من آياته التكافل الاجتماعي في منظومة العلاقات فيقول سبحانه :(كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)٩، في إشارة واضحة للفت الأنظار نحو الطبقة الضعيفة والمستضعفة في المجتمع، والخطاب بالفعل (تكرمون) أقوى دلالة من (تعطون، تنفقون)؛لأنها قمة الألفة والمحبة التي يعطيها الإنسان لأخيه الإنسان.

وقد أكد القرآن الكريم البذل والعطاء بما ينفع المجتمع ويسمو بالنفس الإنسانية إذ يقول تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)١٠، فالبخل هنا مرض اجتماعي وخيم، والتصدق بالحسنى مصدر للصالحات.

ولعل من ابرز السنن الاجتماعية في القرآن الكريم ربط النوع الإنساني بعلاقة مقدسة ألا وهي الإخوة (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)١١،إذ تعد من اللبنات الأولى في بناء المجتمع الإنساني القويم.

وقد عالج القرآن الكريم البناء اللفظي للمجتمع فكان يؤكد أسس خطابية تعمل على حفظ الروابط الاجتماعية ونبذ الفرقة،إذ قال تعالى :(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)١٢، وقال تعالى: (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ)١٣، وقال تعالى: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)١٤.

وفي آيات يؤكد السياق القرآني جملة من الصفات المقبولة اجتماعياً والتي تكون مدعاة البركة والنعيم في الحياة (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)١٥.

وكان القرآن الكريم سباقا في إشاعة ثقافة الحرية والتحرر من العبودية،ومعالجة تلك الظاهرة التي كانت شائعة في المجتمع الجاهلي والمتمثلة بشراء العبيد فيقول تعالى: (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)١٦.

وفي آية أخرى يتحقق معنى التكاتف والتواصل بين أبناء المجتمع،إذ قال تعالى :(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)١٧، فالإطعام سبب من أسباب التواصل والتراحم، وخلق جو اسري تراحمي بين أفراده.

فالإسلام يرسم سلوكاً اجتماعياً؛ لخلق نظام مجتمعي على مختلف المستويات التي تربط الفرد الواحد بمجتمعه ومدى صلته به. فنجد ذلك في جانب صلته بالوالدين (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)١٨، (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)١٩،و يقرن بين عبادة الله سبحانه وتعالى والإحسان لوالديه،إذ قال تعالى (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)٢٠، وهذا مما يخلق مساحة أمام المجتمع؛ ليميز بعض العلاقات وأسلوب التعامل الخاص مع الأفراد والذين يعدون من المقدسات في المجتمع كالأب وألام لاقتران طاعتهما بطاعة الخالق ورضاهم رضاه. وهذا مما يضمن صون العلاقات الاجتماعية من خلال التزام الحب والتقدير لهم.

وفي جانب ذوي القربى (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّه)٢١، وفي جانب الضعفاء (وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ)٢٢، وفي جانب الأبناء (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)٢٣، وللمجتمع الإسلامي بقوله تعالى :(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)٢٤، وهذا يخلق التوازن في المجتمع والواقعية المطلوبة ويبعد الصراع القائم على أساس غير متوازن، إذ ظهرت الكثير من الأفكار التي ادعت خلق ذلك التوازن الاجتماعي إلا أنها أنصفت جانبا وأغفلت آخر؛ إذ نجد ذلك بما نتج عن الماركسية، والبروليتاريا التي أرادت إنصاف الطبقات العاملة الكادحة، والبرجوازية، والإقطاعية، والاشتراكية، والليبرالية، وكل الديمقراطيات وبكل أشكالها اثبت الزمن عدم قدرتها على خلق التوازن الاجتماعي مما خلق الكثير من المشاكل سواء على الصعيد الاجتماعي أم الاقتصادي. أما القرآن الكريم فقد حدد منهجاً اجتماعياً لسلوك متكامل يضمن حق وعدالة كل فرد من أفراد المجتمع من خلال عدم فصل الفرد نفسياً وسلوكياً عن المجتمع الكامل إذ لا يسرق المجتمع حقوق الفرد تحت شعار من تلك الشعارات الحالمة الكاذبة، بل انه يضمن له حياة كريمة وقوانين منصفة اجتماعياً.

وبإيجاز شديد إن النظرة الإسلامية للمسألة الاجتماعية ليست صورة نابعة من خيال شاعر ولا لوحة صماء بريشة فنان ولكنها واقع حي متحرك أنشأته الدعوة الإسلامية وقام بأمر الله تعالى الذي لا يؤلف القلوب سواه٢٥ .

المحور الثاني
الخصائص الأسلوبية في آيات الملمح الاجتماعي

لعل ما يهم هذه الدراسة هو كيفية أداء تلك الملامح الاجتماعية في الخطاب القرآني، وآلية عرضها بخصائص وأساليب دلالية تؤدي إلى قبولها من المتلقي؛ لتحقق غرضها الاجتماعي الرئيس، إذ نجد أن هذه الآيات تمتعت بكثير من الأساليب والأنماط التصويرية التي جعلت مضان قبول ورضا من المتلقي، فالاعتناء بالمبنى مواز للاعتناء بالمعنى، فنجد أن جملة من الخصائص التي تقرر نتيجة معينة بناء على وصف معين، بأسلوب تركيبي خاص بجملة شرطية مثلاً أو ترتيب الجزاء على الفعل أو امتناعه بسبب الفعل، فيكون الإخبار بهذه الصيغ إخبارا عن سنة ثابتة لله تعالى كما في قوله تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)٢٦، وقوله سبحانه : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)٢٧، ومنها ورود فعل لله سبحانه مع تعليله في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)٢٨.

اولا: التشكيل الايقاعي

ومن الخصائص الأسلوبية في آيات الملمح الاجتماعي التشكيل الإيقاعي الذي تمثل بالجناس التام في قوله تعالى :(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)٢٩، فالجناس حاصل في لفظة (الميزان) بمعان متفاوتة بين (العدل) و(آلة الوزن) (والشيء الموزون)٣٠.

فكان الجناس التام بين ثلاثة أطراف، تواشجت فيها الألفاظ ومعانيها ضمن إطار متزن دقيق، فالآية تخلق ثلاثية كونية لتكريس جانب اجتماعي عملي، يحفظ التعاملات الشرائية التي تؤكد الشفافية فيها، إذ يربط بين آلة الوزن التي تعلن حالة التوازن التعاملي بين البشر، ويخلق القبول والرضا مرتبطة بالميزان الإلهي المرتبط بالكون ووضعه، وبين الموزونات التي تمثل التطبيق الفعلي لميزان العدل الإلهي والحق في الأرض بين البشر، فتكون النتيجة تحقيق التوازن التام. فالله –سبحانه– شرع العدل و(وضع الميزان) وأمر به، وقرنه مع رفع السماء تنويهاً "بشأن العدل بأنه نسب إلى العالم العلوي، وهو عالم الحق والفضائل".٣١

ومن الجناس المضارع الذي في يقع الحرفان المختلفان في النوع، المتجاوران في المخرج الواحد ووسط طرفي الجناس قوله تعالى :(ذلكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ)٣٢، فالجناس المضارع حاصل بين (تفرحون) و(تمرحون) وهما متفقان إلا في (الفاء) و(الميم) وهما حرفان شفويان معاً، إلا إن (الفاء) من طرف الأسنان العليا مع باطن الشفة السفلى، فيضيق المجرى عند مخرج الصدى، فتسمع حفيفاً عالياً يميزها بالرخاوة٣٣. إما (الميم) فتنطبق معه الشفتان انطباقاً تاماً في أثناء تسرب الهواء من التجويف الأنفي٣٤، فتقارب المخرج أدى إلى تقارب الأصوات ومن ثم تقارب المعنى، فالفرح والمرح دلالتهما واحدة وهي التعبير عن الحالة الانفعالية حيث تتغير هيئة البدن كله فيبدو نشيطاً منتصب القامة، مرفوع الرأس، متسع الصدر، مزهواً متكبراً، لدرجة المبالغة في هذه الصورة لتعطي مفهوماً مغايراً لمعنى (الفرح).

ولعل تباعد الصفات بين (الفاء) و(الميم) أحدثت مراوحة إيقاعية من انخفاض إلى علو تتناسب مع التحول الدلالي للفعل بالانتقال من حالة الانفعال النفساني (الفرح) إلى الهيئة الظاهرية (المرح)، وعلى الرغم من أن (يفرحون) و(يمرحون) يعطيان دلالة الانشراح النفسي إلا أنهما في سياق النص يشعران بالانقباض النفسي، لما حمله النص من إيقاع مشوب بنغمة التقريع والتوبيخ، ليعطي الجناس بما أحدثه من إيقاع، خطاباً للمجتمع الإنساني في تجنب حالة من الحالات التي لا تمت للحق بصلة، فصورة الفرح والمرح تنتقل من صورتها المقبولة إلى الصورة المرفوضة إذا اقترنت بالباطل.

وفي آية مقابلة بأسلوب الجناس الحرفي قوله تعالى :(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ).٣٥

فالجناس الحرفي بين (لا) الناهية في (لا تمش) وهي موضوعة لطلب الترك٣٦، وطلب الكف عن فعل الشيء٣٧وقد جاء هذا النهي في سياق خطابي على لسان لقمان عليه السلام، وهو يعظ ولده بنهيه عن التكبر على الناس والتفاخر عليهم، فقوله :(ولا تمش في الأرض مرحاً) بأسلوب الكناية في تصوير المعنى لتبرز تلك المشاعر النفسية المريضة وتجسيدها في وضع ظاهر للعيان من خلال تلك الحركة المادية٣٨، ولعل الدلالة تتركز

في قوله (مرحاً) صفة للمشي من الفرح والازدهار والتبختر والاختيال، كل تلك الصفات تخلق جواً يسود فيه قلة الاحترام للآخرين، ويقابل ذلك قوله تعالى (لا يحب) أي الذات الإلهية، هنا ترتبط هذه السلوكيات برفض من لدن الذات الإلهية٣٩، ليكون النهي اشد وقعاً في النفس، ولعل الانتقال من الأسلوب الإنشائي بالنهي إلى الأسلوب الخبري بالنفي حيث يتوافق الإيقاع الصوتي مع هذه التوجيهات النفسية مع حاسة السمع في كلا الموضعين؛ ليكون درساً لا يقبل الشك من خلال توافق أكثر من آلية في سياق واحد لخلق ملمح اجتماعي مقبول أو مرفوض.

ومن التشكيل الإيقاعي في آيات الملمح الاجتماعي التكرار ومنه التكرار الصوتي، ففي قوله تعالى :(وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ . ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)٤٠، فالمشهد الأخروي ـــهنا ـــ لا يعرض جزاء أهل الحق وجزاء أهل الباطل، إذ هي عملية إصلاحية تربط بين المقدمة والنتيجة، إذ الدنيا مزرعة الآخرة، لذا يمكن استثمار ما يعرض في مشاهد الحياة الآخرة لإصلاح المقدمات في هذه الدنيا وبأسلوب الخطاب الجمعي المباشر فقد تكرر صوت (الميم والكاف) سبع مرات، في دلالة على المسؤولية الملقاة على عاتق أفراد المجتمع جميعهم، فقد جاء تكرارها في مقام إثبات المسؤولية وتقريرها.

وقوله تعالى في صورة المعادلة الاجتماعية المقبولة والمرفوضة بأسلوب تكرار التجنيس :(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)٤١، فالتجنيس بين لفظتي (سواء) و (ساء) احدث إيقاعا نغمياً متفاوتاً بين طرفي التجنيس، تبعاً لاختلاف زمن النطق بينهما، إذ زاد الطرف الأول عن الثاني بوحدة زمنية واحدة، وهو ما يسمى عند البلاغيين بجناس الترجيع المكتنف وهو "ما زاد احد ركنيه على الأخر حرفاً في وسط اللفظ المجانس"٤٢، وهذا التفاوت الزمني والإيقاع مثل طرفي موازنة، يكشف الطرف الأول فيها وهو (سواء) عن تفكيرهم المغالط، في حين يكشف الطرف الثاني (ساء) عن حقيقة مصيرهم وتفكيرهم وهذا كله يدفع إلى التفكير الجدي في أسلوب التعاملات الاجتماعية.

ومن الخصائص الأسلوبية في التشكيل الإيقاعي القائم على توازن البنى إيقاعيا كما في قوله تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)٤٣، فكل من:

مسكيناً // يتيماً // أسيرا

بنى اسمية متوازية صوتياً، إذ جاء البناء المقطعي لها متوازياً تقريباً، ما عدا الحرف الساكن من الاسم الأول (مسكيناً)، إلا انه لم يحدث تبايناً صوتياً كبيراً.

وقد رسم التوحد الصوتي بين هذه البنى صورة التوحد بالعطاء إزاء هذه الطبقات من المحتاجين، واستمراره بالدرجة نفسها من إعطائهم، فالتوحد الصوتي يناظره توحد بالدلالة على الرغم من التعداد الواقع بين هذه البنى.

ثانيا: المستوى التركيبي

ومن آليات الخطاب لآيات الملمح الاجتماعي أسلوب التقديم والتأخير في السياق اللفظي للتراكيب؛ للتعبير عن الأهمية أو الأفضلية إذ قال تعالى :(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)٤٤، فأخر (المساجد) وهي أفضل الأماكن المذكورة، فهنا لا يعد التقديم للأهمية بل التقدم للمفضول على الفاضل، والمتأخر على المتقدم أو العكس بحسب ما يقتضيه المقام والسياق٤٥. والسياق يؤشر مفهوما اجتماعيا لحفظ استقامة حال العيش،والإشارة للمعابد فيه دلالة الدين المحافظ على البناء الاجتماعي .

ومن آليات الملمح الاجتماعي المقابلة بين الأنساق؛ وذلك لغرس حقائق اجتماعية كما في قوله تعالى: (مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)٤٦، فالتقابل قائم بين لفظتي (السيئة) و(الحسنة)، إذ مع كل لفظة يستحضر الذهن الضد على الفور قبل مجيء الطرف الأخر.٤٧

إذ إن التقابل في التضاد اللفظي يعمل على إنشاء حركتين في الذهن، هما الحركة العمودية المتمثلة بالحضور والحركة الأفقية المتمثلة بالذهن أو ما يسمى بالغياب، فهناك "الخط الملفوظ وهو الخط الأفقي، والخط التقديري هو الرأسي"٤٨ .

فبمجرد ذكر لفظة (حسنة) تأتي في الذهن لفظة (السيئة) وبالعكس مما يخلق

صورة متكاملة ومغلقة لهذا المعنى وفي حين تتماثل على المستوى التقاطعي، مما يؤكد عدم استواء الحسنة والسيئة، إذ الحسنة تخلق حسنة، والسيئة تخلق سيئة، وثمة وحدة تقابلية أخرى في سياق الآية تمثلت (بالعداوة) و(الحميم) فالتقابلين في سياق آية واحدة ينتج عن تصريح واحد هو نبذ السلوك العنف وتأكيد السلوك سواء في التخاطب أم في التعامل، فالمعاملة الحسنة تخلق نوعاً من المحبة والقبول، والتقبل الفكري والسلوكي على حد سواء، في حين أن السيئة تخلق عداوة ورفضاً.

ثالثا: فاعلية الصورة وآيات الملمح الاجتماعي

ففي إحدى الصور التشخيصية التي يدعو فيها الله سبحانه وتعالى إلى نبذ القساوة في القلب، واستبدالها بالقلب الرحيم الخاشع المتذلل لخلق جو اجتماعي متوازن، من خلال تسخير صورة الجماد في مخيلة المتلقي عبر آلية التشخيص الذي يكون "اقدر على إحداث الاستجابة المناسبة"٤٩.قال تعالى :(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)٥٠، فلوحة الجبل الخاشع المتذلل بين يدي سيده ومولاه، استحال بسحر الاستعارة التشخيصية إلى إنسان يجيش قلبه بالخشوع والرهبة حتى كأنه يتشقق من سماع آيات الله تعالى، وفي هذه الصورة إيحاء للإنسان على الاعتبار والتدبر لآيات القرآن الكريم، ومن أدق ما يصور القرآن لما استعار الصدع الذي يوحي بكمال الخشوع عبر (التصدع) كالزجاج، مقارنة مع الإنسان الذي يحمل قلباً وعقلاً و لا يتأثر بالقرآن الكريم، فالتصوير البياني التخيلي توبيخ للإنسان على قساوة قلبه التي تجرأت على أقدس الموجودات، ومن ثم قساوته على المجتمع.

ومن الصور التشبيهية التي تشير إلى أثر الكلمة الطيبة في الإنسان إذ قال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)٥١، إذ خلق من هذه الصورة نمطاً متوازياً، من خلال التقابل الدلالي بين صورتين يخلقان تنافرا دلاليا على المستوى السطحي للنص، إلا أن آلية المغايرة والائتلاف حققت انسجاماً دلالياً من خلال الربط بين البنيتين "وإنشاء نظام علاقات بين طرفي التضاد"٥٢.

فالتشبيه الصوري القائم بين البنيتين المتقابلتين (الكلمة الطيبة) ووصف (الكلمة الخبيثة)، فجاء التشبيه معاً (بشجرة)، فتحقق التقابل بين المشبه والمشبه به معاً. فالتقابل قائم بين ضدين لمفهوم واحد ألا وهو الإنسان (القوي) و(الضعيف) فالقوة أشارت إلى دلالة الثبات والعلو والعطاء والاستمرار به، في حين أحال الضعف إلى دلالة (الانقطاع، والتخلخل، والقلق، والضرر)، فالشجرة الوارثة رمز الكلمة الطيبة وهذا ما أكدته الآية بقوله تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)٥٣، فيه دلالة الاستقرار، وأحال الجزء الثاني إلى دلالة العلو، والثبات الدلالي الذي أسسه الاسم، معززاً الدلالتين، إذ إن ثبات النبات هو السبب في تناميه وعلوه، واتجاهه من ثم نحو السماء، فيتحقق السمو الاجتماعي من خلال هذه البنية التشبيهية للفرد من خلال اعتماده أسلوبا خطابياً راقياً، ونبذه الأسلوب الخطابي السيئ.

ومن الصور الكنائية في الملمح الاجتماعي قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)٥٤، فقوله (لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) مستندة إلى الاستعارة المكنية، بإظهار البركات وكأنها موجودة خلف أبواب مغلقة ثم حذف الأبواب وأبقى شيئاً من لوازمها وهي عملية الفتح على سبيل الاستعارة المكنية، إذ تحقق النمط الكنائي بتواشجه مع النمط الاستعاري؛ ليخلق دلالة الفيض من الرزق المبارك الذي لا يتحدد بقطر السماء النازل وثبات الأرض، بل شموليته وهذا مدعاة للإنسان اتخاذ الجانب الإيماني بما يحمل من صفات تضفي عليه سمات التراحم والتآلف ومن ثم خلق سلوك مجتمعي متزن.

الخاتمة

بعد دراستنا للخصائص الأسلوبية في آيات الملمح الاجتماعي نجد حرص القرآن الكريم في عرض الجوانب التي تضمن صون العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وخلق جو تراحمي متزن ومترابط. ومن ابرز خصائص المنهج القرآني في تثبيت العلاقات الاجتماعية، انه لا يقيم البناء الاجتماعي على أساس الصراع أو التناقض بل انه يعمل على توحيد الناس وخلق أواصر الرحمة والحب والتسامح، والفضل والتعاون ومراقبة الضمير وخشية

الله وغير ذلك من المعاني الكريمة.

وقد عرض هذه الملامح الاجتماعية في سياقات بلاغية رائعة تحاكي القلوب والأسماع، لترسخ في الأذهان، وأوضح الأحكام والقوانين الاجتماعية المقبولة، فقد جاءت بأنماط تصويرية تشيع دلالات متعددة على أعتاب مجتمع متناغم تسوده المحبة.

الهوامش:

١"خصائص التصور الإسلامي ومقوماته"، ص١٢٩.

٢- القران الكريم، (البقرة/ ١٨٣).

٣- القران الكريم، (البقرة/ ١٧٩).

٤"المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية"، ص٢١٠.

٥- القرآن الكريم، (هود/ ٥٢).

٦- القرآن الكريم، (الأعراف/ ٩٦).

٧- القرآن الكريم، (هود/ ٣).

٨- القرآن الكريم، (النحل/ ١١٢).

٩ - القرآن الكريم، (الفجر/ ١٧-١٨).

١٠- القرآن الكريم، (الليل/ ٥-١٠).

١١- القرآن الكريم، (الحجرات/ ١٠).

١٢- القرآن الكريم، (النحل/ ١٢٥).

١٣- القرآن الكريم، (النساء/ ١٠٧).

١٤- القرآن الكريم، (الإنعام/ ١٢١).

١٥- القرآن الكريم، (الأعراف/ ٩٦).

١٦- القرآن الكريم، (المجادلة/ ٣).

١٧- القرآن الكريم، (الإنسان/ ٨).

١٨- القرآن الكريم، (الإسراء/ ٢٣).

١٩- القرآن الكريم، (الإسراء/ ٢٤).

٢٠- القرآن الكريم، (لقمان/ ١٤).

٢١- القرآن الكريم، (الإسراء/ ٢٦).

٢٢- القرآن الكريم، (الإسراء/ ٢٦).

٢٣- القرآن الكريم، (الإسراء/ ٣١).

٢٤- القرآن الكريم، (الحجرات/ ١٠).

٢٥ "المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية"، ص٢١٥.

٢٦- القرآن الكريم، (الكهف/ ٥٩).

٢٧- القرآن الكريم، (البقرة/ ٢٥١).

٢٨- القرآن الكريم، (الحجرات/ ١٣).

٢٩- القرآن الكريم، (الرحمن/ ٧-٩).

٣٠ "التفسير الكبير"، ٢٩/٩٠.

٣١"تفسير التحرير والتنوير"، ٢٣٨/٢٧.
٣٢- القرآن الكريم، (غافر/ ٧٥).
٣٣- د. الأصوات اللغوية"، ص٤٦.
٣٤- المصدر نفسه ص٤٥-٤٦.
٣٥- القرآن الكريم، (لقمان/ ١٨).
٣٦- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب"، ٢٤٦/١.
٣٧- الإيضاح في علوم البلاغة"، ص٢٤٤.
٣٨- الكناية في القرآن الكريم"، ص١٧٥.
٣٩- ينظر تفسير التحرير والتنوير/ ١٦٧.
٤٠- القرآن الكريم، (الجاثية/ ٣٤-٣٥).
٤١- القرآن الكريم، (الجاثية/ ٢١).
٤٢- نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز"، ص٦٠.
٤٣- القرآن الكريم، (الإنسان/ ٨).
٤٤- القرآن الكريم، (الحج/ ٤٠).
٤٥- وظائف السياق في التفسير القرآني"، ص١٤٦.
٤٦- القرآن الكريم، (فصلت/ ٤٣).
٤٧- مفتاح العلوم، السكاكي، ص١١٠.
٤٨"البلاغة العربية قراءة أخرى"، ص٣٥٦.
٤٩- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٤م: ٢٣٠.
٥٠- القرآن الكريم، (الحشر/٢١)
٥١- القرآن الكريم، (إبراهيم/ ٢٤-٢٥).
٥٢"الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة ص١٦٩-١٧٠.
٥٣- القرآن الكريم، (إبراهيم/ ٢٧).
٥٤- القرآن الكريم، (الأعراف/٩٦)

المصادر:

١. القرآن الكريم
٢. الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي،ط١،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٤م .
٣. "الأصوات اللغوية"، إبراهيم أنيس ،ط٥، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، (د.ت).
٤. "الإيضاح في علوم البلاغة"، الخطيب القز ويني (ت ٧٣٩ هـ)، شرح وتعليق وتنقيح: د. محمد عبد المنعم الخفاجي ، ط٥، منشورات دار الكتب اللبناني، بيروت- لبنان، (١٩٨٣).
٥. "البلاغة العربية قراءة أخرى"،الدكتور محمد عبد المطلب،ط١،البركة المصرية العالمية، (١٩٩٧م)
٦. تفسير التحرير والتنوير"، محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر.(١٩٨٤).
٧. "تفسير التحرير والتنوير"، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، والدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (د.ت).
٨. "التفسير الكبير"، أبو العباس تقي الدين بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق وتعليق د. عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
٩. "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته"، سيد قطب،دار الشروق، ط٣. (١٩٨٨م) .
١٠. الكناية في القرآن الكريم"، احمد فتحي،أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل.(١٩٩٥).
١١. "المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية". عمر عودة الخطيب ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،دار الفرقان للنشر ،(١٩٨٠م)
.
١٢. "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن احمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري (ت ٧٦١ هـ)، حققه وفصله وضبط غرائبه: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت.
١٣. "مفتاح العلوم"، السكاكي ، تحقيق: أكرم عثمان سلمان، ط١، دار الرسالة، بغداد، (١٩٨٢م)
١٤. "نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز"، محمد بن عمر فخر الدين الرازي ، تحقيق وتقديم د. إبراهيم أنيس، و د. كمال حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، مكتبة الدراسات البلاغية.(١٩٨٥) .
١٥. "الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، حمادي صمود ، الدار التونسية، تونس، د.ط.(١٩٨٨).
١٦. "وظائف السياق في التفسير القرآني"، عقيد خالد العزاوي، محمد شاكر الكبيسي ،ط١، دار الماجد، دار العصماء، (٢٠١٥م) .